مسؤولية القارئ

بقلم محيي الدين محمد

الجسر بين ذهن الكاتب وذهن القاريء هو انتقال الاحرف السوداء من فراغ الصيحفة الى الوعي المترقب موصلا عناء الفنان الى لامبالاة المتطلع .

والكلمات ، هذه الرموز المثقلة بالمفهومات المشتركة ، لا تملك الا ان تدق نفسها في الذهن خلال المتابعة البصرية للجمل والاسرار المعروضة امام القاريء ، بيد ان ذهن القاريء حر في ان يقرأ الكلمة او يرفضها : وهذه الحرية المفتعلة هي اساس دلال القاريء الحديث ، هذا الاساس الوهمي الذي ظل يفرق بين المسئوليتين والذي عرف ادب العصور الحديثة كيف يتخلص من أسره بعد ان اطاح بفكرة التأثير التي كانت اساس الفن القديم .

الكاتبان العقلي والعاطفي(*) يؤلفان في كل موضوع ، ويكتبان ما تفرضه أيديولوجيتهما ، بدون ان يحاولا افتراض صلة بين ما يكتبانه وبين ما يقرأه الجمهور . ففي ذلك العصر لم يكن الادب الا امتاعا وجمالا صرفا ، فقد كان متذوقوه طبقة وحيدة شريفة اريستوقراطية ، وكان على الكتاب ان يتجاوبوا مع الاحزان العاطفية لهم ، ومع مسراتهم الحلوة : كان الكاتب موجها قلمه الى صدور النبلاء .. ولذلك كان القاريء العادي حرا في ان يقرأ هذا الادب ، او يرفضه لانه لم يكن موصولا به ، لانه كان يحس بنفسه فائضا وبدون داع ، ما دام حتى الكتاب والفنان قد ربطوا انفسهم الى ملذات النبلاء .. وبذلك يكتشف ان الفن كان ترفا بعيدا ، ومسرات بدون حدود ..

والجهد المبذول من الكاتب هو جهد الصناع الخبير الذي يعرف ما عليه عمله : كثيرا من التوابل ، ثم لا شيء بعد ذلك !! . وقد امسكت هذه التوابل بحسية القراء منذ (الام فرتر) حتى الصقيع الجليدي الذي يرتديه (شو) . وعملية التوصيل هذه ، ليست عملية مشاركة ، انما هي ارغام من جانب واستجابة من الجانب الاخر ، ولا يملك هذا الجانب المستجيب الا ان يبدد نقاءه الذاتي في سبيل ارتباطه القيدي بالعكارة العامة ، ولم يكن القاريء يملك الا ان يطيح بما قرأه منذ برهة ، فليست حياته ما رآها معروضة خلال الكلمات ، وليست هي احزانه ..

التأثير اذن ما كان يبحث عنه الادب القديم ، اي تأثير ولذلك كان يكفي ان يوصل بسذاجة لا حد لها قلب الكاتب ، بقلب القاريء لتنتهي مهمة الادب والفن : كان يكفي ان ينتحر الف شاب او تبكي الف عاشقة حزنا وصبابة ، ليدرك الكاتب فنيته وعبقريته !.

ولذلك كان القاريء حرا في ان يربط نفسه الى هذا الكاتب او ذاك ، او لا يرتبط على الاطلاق ، ومثل هذه العملية الناقصة : التأثير ، لا تتيح ابدا ان يجتمع كفان ليتحملا ثقل المسئولية التي هي معنى حياتهما ..

فما هو اذن الحجر السحري الذي يبحث الادب عنه ما دامت غاية التأثير تثبت فشلها ؟

يكتب الكاتب وفي ذهنه الجمهور ، في ذهنه قلق الجمهور وغضبه ، في ذهنه الثورة على الذي يثور من اجله الجمهور ... انه يكتب ليحقق الحرية ، وليعيد الى البشر روح البطولة والنبل التي فقدت منذ عصور الالم البعيدة ، ليحقق العدالة والخير ويسحق الشره والخسة ، ولان هذه الاهداف هي امل الجمهور واخلاقه ، يصبح الكاتب قبضة الجمهور الساحقة ..

ومهما كان الكاتب مطموسا وغائما فهو اخلاقه الخاصة ، لذلك كان الاشتراط التالي للكاتب الحقيقي اشتراطا عاما : الاخلاقية ...

فالسبب الحقيقي لثبوت المنهاج الواقعي ليس كما يظهر هو الاختفاء الضروري لطبقة الاشراف بل هو ضمور الستار الزائف عن الحس الاخلاقي للكاتب ، والذي يثبت هذا ، وجود المنهج الواقعي تاريخيا في نفس الحقبة الرومانتيكية والكلاسيكية ، بل وما قبلهما ..

كل انسان موجود هو بالضرورة وجود لتطور . وكل فرد زائد يكوّن معادلة متقدمة ، ولا بد ان يكون الغد اكثر تطورا من الامس ، فكل دقيقة تضاف الى اعوامنا هي سجل ما نفعله في سبيل تقدم هذا العالم ، الفرد هو الذي تحمل مسؤلية وجوده ، وتطوير وجوده ، اما الكاتب فهو يحس في قلقه الدائم بمسئوليتين: تطوير وجوده الشخصي ثم تطوير العالم والآخرين ..

ولذلك فالكاتب هو حصيلة عملية حسابية قد تضم اليها

((اذا كان الفنان يلاقي العناء والنصب والاجهاد والالم والمذلة والقرف والغضب والارهاق في سبيل تطوير القاريء ، فليس يكفي اذن ان يبدي هذا القاريء الملل استحسانه واعجابه وجذله المفرط لتنتهي مهمة الادب والكتاب .))

(*) نقيم هذه التفرقة المضحكة هنا ، على اساس التحديد ، علما بانه لا يوجد كاتب عقلي محض ولا عاطفي محض

الف فرد في قلقهم الوجودي ، ما دام هو المسئول عن تطورهم الخاص .. وهذا العالم المسكين يحتوي من المآسي والمذلات والبغضاء ما لا يكفي ان نعلن فقط عن محض سخطنا ، لتغييره ، فقد حاول انبياء وقديسون ان يوجهوا سخطهم الى قلوب الحكام لاقرار العدل والنظام ، غير ان المشكلة زادت تعقد وصلابة ، لان الكلمة وحدها بدون صلة بينها وبين قلب وعمل لا تستطيع ان تنتج أثرا ..

الفعل والحركة والثورة هي التي تطور العالم ، تطور بؤس العالم ، والفرد يعرف ذلك ، غير ان العادة تقتل فيه نشاطه ، وهمومه الشخصية تزيد هذه العملية حدة وارهابا ، ولذلك يطلب السلامة والامن ، ويعزف عن الرجاء والعمل .

واما الكاتب فهو ضروريا ، ضد العادة ، وضد همومه الشخصية، لان الاخلاقية فيه ، هذه الاخلاقية التي طمست عند الفرد بتأثير العادة الاجتماعية ، والهم المادي ، لا زالت في توهجها الازلي ، ومن هنا لا يمكن ان يطلب الامان او اللافعل ، ولذلك يدافع عن الحرية ، ويرتبط بالاخلاق . بتغيير الوضع وبالتطور ، والامل ..

ويبدو الاثر الوحيد لاخلاق الكاتب في سلوكه الشخصي، فاذا كان الفن سلوك الفنان ، فأخلاق كل فنان اذن هي فنه الخاص ، ولا بد ان يكون سلوك مجموعة من الفنانين متفقا اخلاقيا ، اي مع البشر .. ضد الطغيان والفساد والاجرام، مع الاعتراف بالاختلافات الشكلية والاسلوبية ... فكل عمل فني هو رسالة وعت حتى المذلة بؤس الجمهور وغضبه المكبوت ، وفي محتواها الف الف شكاية وثورة ، فالذي يعرضه العمل الفني هو نفسه الذي يحس به الجمهور بدون ان يستطيع التعبير عنه ، فليس التأثير اذن ما يطلبه العمل الفني الحديث ما دام الرباط موجودا منذ البداية بين قلق الجمهور وقلق الفنان المزدوج ..

انها عملية ذات ثلاثة اوجه متداخلة حتى الامتزاج ، واولها التلقي ثم الانفعال ثم الحركة .. فبدون هذا الفعل الدينامي النهائي يصبح العمل الفني الراهن امتدادا للاثار الرومانتكية البليدة ،ويضحى وجوده شاهدا على عدم التجاوب اللازم بين الفنان والجمهور ، فمحض الانفعال هو عملية شعورية ضعيفة ، محددة زمنيا ، ينتهي اثرها في حدود اتفه مشكلة عارضة تواجه القاريء.. انه التبديد العبثي لمنطقية الواقع ، في محاولة يائسة للانضمام الملح الى واقعية مخالفة هي واقعية الكاتب : ان الانفعال الذي هو تبديل ظاهري للعالم من حالة الى اخرى يسوقنا الى سوفسطائية عقيمة تبدل الفعل المشروط به العمل الفني الى محاولة للمسايرة فقط ..

والانفعال هنا يقابل التأثير القديم ، وهو مجرد احالة الم او مسرة من قلب الكاتب الى قلب القاريء، وخصوصية هذا الالم او المسرة تبعد بهذين الاحساسين عن ان يصبحا في مواجهة قلوب الجمهور : انهما يثرثران مع احزان ومسرات قريبة الشبه باحزان ومسرات الكاتب ، وليس الجمهور كله يحس بهذا الاحساس الخصوصي جدا، فالادب الانفعالي يمسك اليه جمهورا من نوع الاديب وشكله وطبقته . الادب الذي يؤكد الحركة والفعل ، هو ادب الحرية ، الرسالة التي تفيض قوة وصلابة ضد اشكال عديدة من العبوديات التي تحجر تقدم الانسان وتربطه الى ماضيه ، هذا الادب يملك الخصائص الثلاث التي تشرك عمل الكاتب بعمل القاريء، بيد ان حرية القاريء تقيد حركته في سكونه اللامبالي، وتفوّت النشاط النهائي لثلاثية الفن، وهو الحركة التي هي سر الثالوث بأكمله، فكأن على الكاتب مسئولية تكبيل حرية القاريء ، لاقرار الحرية العامة ، وهذا يثبت لاحرية الكاتب نفسه في اقرار او لاقرار الحرية .. واجب وقطعي ان يدافع الكاتب عن الحرية ، بدون ان يناقش حتى فرضيتها ، فأقل صور الوجوب عند الكاتب ، تصبح الواجب الوحيد المطلوب من القاريء ، وهو : ان يعزل حريته الشخصية ، بل ويفقدها ليتحرك بواسطة تأثير الكاتب لاقرار الحرية العامة والعدل.

القاريء فنان على مستوى التطلع .. لذلك فهو مسئول عن تغيير وضعه نفس مسئولية الكاتب ، بل واكثر منها تحديدا ، فلا يمكن ان تنتهي مسئولية القاريء عن حد القراءة والتمثل .. عند حد التطلع الحيادي لآلام ومضايقات وعذابات الفنان في توصيل قلقه اليه ، فكم يكون هزيلا وموئسا ان يكون المطلوب من القاريء هو الانفعال .؟!

فاذا كان الفنان يلاقي العناء والنصب والاجهاد والالم والمذلة والقرف والغضب والارهاق في سبيل تطوير القاريء

صدر حديثا

الناس في بلادي

شعر

للشاعر المجدد صلاح الدين عبد الصبور

دار الآداب

فليس يكفي اذن ان يبدي هذا القاريء المدلل استحسانه واعجابه وجذله المفرط لتنتهي مهمة الادب والكتّاب ..

ان اقل ما يطلبه الكاتب هو ان يبتر عن القاريء احساسه المفرط بالحرية ، ليصبح على الاقل مساويا للكاتب نفسه في الاحساس بالحرية العامة ... فحرية القاريء اللاواعي هي بالتحديد لامسئوليته ، اي لامبالاته ، لان الحرية تتطلب الوعي لتصبح على قدر من التنظيم والدقة ، فكما نعرف كلنا ، ليست حرية الحيوان الا فوضاه بالذات ..

ان الكاتب يوصل معاناته الى جمهور اقل منه وعيا وخبرة ، فاذا كانت تجربته هذه موجهة الى جمهور حر ، اصبحت عملا عبثيا جدا ولا طائل وراءه ، والمطلوب الان ، ما دام الكاتب نفسه وهو الوعي الاكثر لا يملك من الحرية الذاتية ما يجعله لا يدافع عن الحرية او العدل ، ان يصبح القاريء ، الاقل وعيا ، طليقا عن اسر حريته الخاصة وممسا بكل خلية فيه بتبعيته المطلقة الى عالم الكاتب الذاتي الذي هو عالم عام بالضرورة .

يجب ان ينزع القاريء حدوده ليكمل الحدود العامة التي رسمها الكاتب والتي ينتظرها العالم من الاثنين معا ، من حركة الاثنين معا ...

والحركة هي الخاتمة النهائية لفعل التطور الفني ، والفن واقع تعبيري حياتي ، لذلك فحركته الخاصة اسهام في حركة المجتمع وتطوره ، بيد ان تأثيره البطيء يشكك دوما في نتائج هذه العلاقة بين الكاتب والجمهور . فكلنا على علم بان الاشتراكي الثوري هو الذي يطور فعالية هذا العالم ضد الجمود والتقليدية والرضى والاحساس بالامان الميت ، فممارسة الفعل السياسي هي اقرار التطور السريع وخوضه هو بالذات الفعل المطلوب من الجمهور ، أفلا يصبح الانضواء في عمل سياسي موحد أكثر جدية للكاتب ، واقل تناقضا مع التزامه المذهبي؟ !

اذا كانت السياسة وسيلة سريعة ، والفن وسيلة بطيئة في سبيل مجتمع منظم ، فلماذا لا يتحول الكاتب الى اشتراكي ثوري ، رافضا الفن والكتابة ؟ !

والاجابة على هذا السؤال بالذات هي سره .. فليست مهمة الفن هي التطوير الحرفي للعالم ، انها على وجه الدقة الايحاء بالتطور ..

ان على الكاتب ان يحول هذا الجمهور الى فعاليات مشحونة بالحركة ، بدون ان ينزلق هو في دينامية الفعل .. فالعمل الاكثر جدية للكاتب في سبيل الدفاع عن حرية الجزائر ، ليس ان يتطوع كمحارب ، وان يموت فردا بنصف رسالة ، بل هو ان يطلق بواسطة عمله الفني الف كتيبة تموت من اجل الجزائر ..!! ان عمله هو اقرار العمل وشجب العمل واللاتحدد من خلال الوصول المر الى الاحساس باللامسئولية عند الجمهور ثم تفتيت هذا الاحساس .

ففي اللحظة التي ينتقل فيها العمل الفني من مجرد حس بالم الكاتب الى شعور طاغ بالحركة ، يصبح القاريء الى الابد من اسر الكلمة الحية التي تقذفه في سعيرها ، ليصبح خادمها واسيرها ، وتضحى الكلمة ، لاشعاعا او حكمة تنفذ الى الذهن الخاثر لمثقفين بلداء ، بل دعوة حانقة مغيظة دموية لتبركل اوصاب العالم ومآسيه ، بنوة جديدة تقلع في عسر وسط بحار الالم المشترك للوصول بكل هؤلاء الناس الى ارض جديدة يصبح فيها الامل بالسعادة عاما ومشرقا .

ولكن القاريء المطلوب فيه ان يخدم شفافية الكلمة ودعوتها المحرقة بالثورة ، لا يشكل مطلقا فعالية نارية تفترضها فيه فيه الكلمة .. فالحساسية التي يطالع بها القاريء الحديث ، والتي تظل في اسر عنادها الخاص ولا تتطور الى دينامية حركية هي سر فشل العلاقة الراهنة بين الكاتب وجمهوره الكاتب يفترض ان تثير اخلاقيته حس الجمهور الخانع ، ورضاه المؤنس ، وهو لا يملك في دفاعه المضني ضد القرف والعبودية الا هذه الكلمة الشريفة التي يتقن اصولها وينشرها في صراعه المضني المميت ضد الجهل وعقلية رؤساء التحرير ومالكي الانصبة المرتفعة لارقام التوزيع من الكتاب التافهين الكبار ، انه وهو الكاتب الحقيقي لا يملك سوى كلمته ليعيد بها هذا العالم الذي يرفض ان يقوم من سقته . فاذا كانت الكلمة هي التي تمثل كل عنائه واحساسه بالسقوط وهي التي تمثل تمرده ودعوته العظيمة بالنمو والحياة والحرية .. فأي مهانة تلحقه ، اذا ارتدت هذه الكلمة ـ كلمته ـ اليه مرة اخرى بدون ان يكون بينها وبين الناس الذين كتبت من اجلهم مشاركة ما ..؟ اي مهانة يحس بها ، واي مذلة ؟!

ولكن الجمهور اللامبالي يقذف بعظمته المخبوءة وعظمة الكاتب معا الى جهنم نسيانه ، ذلك لانه ما زال يحسب الفن متعة ورضاء وحسنا ، فهو يطالع كلمة الكاتب بحساسيته اولا ثم بشعوره الخاص بالحرية ثانيا ، فحين يطالع القاريء عملا ادبيا ، وهو في قمة احساسه بالفردية يعطل بالذات ما يطلبه العمل الفني في قارئه ، فالاحساس بالفردية خلال قراءة او تذوق عمل فني هو شعور طاغ بالحرية الخاصة ، وشدة تمركز هذا الشعور تقلبه الى تحصن بالعزلة في قلب القاريء ، ثم لا تجدى ابدا صرخات الكاتب ولا شدة وضوحه ، لان العزلة هي بالذات الاحساس باللامبالاة واللا مسئولية .. فالادب يطلب ان يكون القاريء اقل حرية ، ليكون اقل شعورا بالفردية ، واقل شعورا بالوحدة، ليطيق النفاذ الى الم الجمهور ،وليصيح واحدا منه مغمورا في غموميته .

فالمؤلف الحالي يخاطب قراءه واحدا واحدا ، وهو تأثير رقمي وبدون طائل ، فحتى اذا وعى رسالته جيدا الف

ذوبان الثلوج

أقبل . . . نضجت حبات العنقود بأيدينا . .
انا أشربناها من دمنا وروينا
ارض محبتنا . . حتى نضجت عنبا .
كنا يوما . . نحن نزعنا الغضبا . .
قلبنا الارض ولم نترك فيها اعشاب عتاب . .
طهرنا اضلعنا :
أقسمنا نزرعها عنباً . . فلاً . . ريحانا . . ،
لا شجراً يؤتي ثمرا كرؤوس الشيطان . .
اقسمنا نسقيها الوجدانا . . ،
لا غسلينا . .
نسقيها فرحة أيدينا
امتدت من شوق مآقينا :
. . الحقد نزعناه ،
والقلب زرعناه ،
وسقيناه الوجدان . .
ونهر حنان
يجري . . حتى اورقت الكرمه . .
وتدلى العنقود . . . .
انظر كيف تدلى العنقود !
مولود من كرم مودتنا . . ،
والحبات امتلأت بعصارتنا . . ،
والشوق بنا يجري في قلب الحبات . .
اعصرها واسق الاحباب بجنتنا . .
اصنع كأسا من ضلعي ،
صبَّ الفرحة في كأسي . . ،
واصنع مبخرة من دمعي المبتل بافراحي . .
ـ حتى لا يحسد كرمتنا الحساد ـ
حرِّك ريش جناحي . .
اطعم منقاري منقارك . . .
اقبل . . لا تبعد عني . .
شُلَّت ايدينا
أترى تخشى كرمتنا تنفد
ان نحن سقيناه الاحباب ؟؟
في مطلع كل ربيع تنضج عنقودا
ما دام الحب بأعيننا معقودا . .
ام زال بقلبينا اعشاب عتاب
كنا بالامس نسيناها في تربة ماضينا ؟؟
شُلَّت ايدينا
ان كنا بالامس تركنا عشبا في وادينا . . !
. . . طهر قلبك ثم تعال :
نعقد جلستنا ، نُحي سهرتنا
نشهد كرمتنا . . . ،
تساقط منها حبات العنقود . . .
نتلقفها في فمنا ، في ايدينا . .
لن تجدي كِرمتنا ، جنتنا
ما دمت معي لست بموجود . .

القاهرة **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

قارىء كان اثرهم ضئيلا ، ما داموا يحاربون متفرقين وحيدين في الف ميدان ، وبألف وسيلة .

ان المطلوب هو ان يكون القارىء اكثر شعورا بالمسئولية والتبعة ازاء ما يقرأ ، ولا يكفي ابدا أن يكون الهضم معياره الوحيد ، فليس العمل الفني وجبة جيدة ، او مخللات حريفة . . ان على القارىء نصف الرسالة التي بين الكاتب وجمهوره ، فاذا عزف القارىء عن ادراك ذلك ، تعطلت اللغة المشتركة التي تقلب اللفظة الباردة جحيما من الفطنة والعمل

ومن هذا السيال العنيف مما تخرجه المطابع اليوم ، لا يجدى ان يحاول القارىء ابتلاع كل ما تصل اليه عيناه ، فذلك بالذات هو الحس العقيم باللامبالاة ، فيكفي ان يختار له خطا مسئولا وجبهة معينة يحارب بها ـ مع الاعتراف بان الاختيار يتطلب فحص كل هذه المناهج . .

ان القارىء الحديث ليس هو الذي يختار الظل الرطب لسنديانة ضخمة ليمضي فترة الظهيرة في قراءة يقطع اوصالها الوسن . . . او ذلك الذي يقرأ لانه لا يعرف ما الذي يفعله غير ذلك !! .

انه باستمرار ، ذلك الذي ادرك ان الكاتب هو وعي اخلاقه هو ، وانه بذاته فعل وعي الكاتب ، لا اقل ، ولا أكثر . . .

القاهرة **محيي الدين محمد**